المطـــر فـــي الشعـــر الجاهلـــــي

الدكتور عبـد الكريم يعقـوب
أستـاذ مساعـد في
كليـة الآداب والعلـوم الانسانية
جامعـة تشريـن

مصطفـى حـداد
طالب الدراسات العليا في
كليـة الآداب والعلـوم الانسانية
جامعـة تشريـن

تعالج هذه المقالة ظاهرة المطر في الشعر الجاهلي ،وأثرها في حياة الجاهليين، ومعتقداتهم . وقد درست أقاليم الجزيرة العربية ،وبينت طبيعة الحياة فيها ،وتوزع القبائل والشعراء في أرجائها . ثم تناولت معتقدات الجاهليين ،والطقوس السحرية التي كانوا يقومون بها لاستمطار السماء ،والآلهة التي أوكلوا اليها أمر التحكم بالامطار، والأساطير التي نسجتها مخيلاتهم عنها .

ثم عرضت لبعض النصوص الفنية ،وبينت من خلالها دلالات المطر النفسية والاجتماعية والرمزية ،مشيرة الى الأساليب الفنية التي اعتمد عليها الشعراء في رسم لوحات المطر الفنية .

للمطر أهمية كبرى في حياة الانسان بشكل عام ،وفي حياة المجتمعات البدوية التي تعيش على المراعي وبعض الزراعات بشكل خاص . والعرب قبل الاسلام كانوا من هذه المجتمعات التي تغلب على أنماطها الاجتماعية حياة البداوة والتنقل ،ويغلب على بيئاتها المتعددة الجفاف وقلة الأمطار، لذلك كانت أهمية المطر في بلاد العرب عظيمة ،والحاجة اليه أساسية ،ولذلك كان له موقع متميز في نفوسهم ،فوقفوا عند ظاهرته مواقف متميزة ،وأحاطوها بالعناية، ورصدوها في حياتهم وواقعهم . وكانت مواقفهم تفصح عن ارتباطهم بالمطر وتقديسهم له في بعض الأحيان . ولهذا كانت له دلالات وأبعاد عقيدية ونفسية واجتماعية ورمزية . وهذه الدراسة محاولة للوقوف على تلك الأبعاد المختلفة ،والوقوف على صور المطر الفنية التي رسم الشعراء الجاهليون ملامحها ومعالمها بعناية ودقة .

فجزيرة العرب تقع في الزاوية الجنوبية الغربية من قارة آسية ،في منطقة حارة وجافة ،لوقوعها في المنطقة المدارية ، اذ يقطعها مدار السرطان في منتصفها تقريبا بين مكة والمدينة ومنطقتي الخرج والأفلاج ،حتى سواحل عمان[1] . وتحيط بها البحار من أطرافها الثلاثة ،بدءا من خليج البصرة ،فالخليج العربي ،فالبحر العربي ،وخليج عدن ،فالبحر الأحمر حتى العقبة . أما حدها الرابع ،فهو امتداد لأقاليمها

١ـ تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي: ١٩

الشمالية البرية ،ويشمل باديتي العراق والشام والجزيرة الفراتية .

تقسم جزيرة العرب الى خمسة أقاليم هي : تهامة ،والحجاز ،والعروض ،ونجد ، واليمن(٢). ولم تكن هذه الأقاليم بحال واحدة من الخصوبة وتوافر الماء ،والكثافة السكانية ،ونمطية الحياة .

فاقليم تهامة الذي كان يشمل منطقة الأغوار الساحلية الواقعة في غربي جبال السراة الى سواحل البحر الأحمر،لم يكن صالحا للزراعة والاستقرار ،لضيق سهوله وقلة أمطاره ،وشدة حرارته ،وكثرة رطوبته، ولم يكن كذلك صالحا لحياة البداوة والتنقل في المراعي بحثا عن الماء والكلأ، لذلك كانت التجمعات القبلية فيه قليلة ، وقد امتدت اليه من الحجاز واليمن والشام . ومن قبائل هذا الاقليم : كنانة ،وعدوان والأشعريون ،وعك ،وخزاعة ،وامتدت اليه من الشمال : جهينة ،وبهراء ،وعاملة ،ومن شعرائه المشهورين الشاعر الفارس ذو الاصبع العدواني .

واقليم الحجاز الذي شمل المنطقة الجبلية الموازية لسواحل البحر الأحمر، والممتدة من اليمن حتى بلاد الشام ،كان منطقة تجمعات سكانية لكثير من القبائل الشمالية والجنوبية على السواء . وقد تنوع المناخ فيه بين منطقة وأخرى،فكان مناخ منطقة السروات قريبا من طبيعة مناخ اليمن ، اذ تسقط الأمطار الموسمية في منطقة عسير التي عرفت بعض الزراعات (٣). وكانت منطقة شمالي الحجاز قريبة في مناخها من مناخ جنوبي بلاد الشام الصحراوي، فقد كانت قليلة الأمطار متباعدة الواحات (٤). وكانت منطقة وسط الحجاز من المناطق التي توافرت فيها المياه ، نسبيا ،وقد عرفت أودية مشهورة كانت عامرة بالسكان من مثل منطقة وادي القرى (٥).

وقد تنوعت نتيجة لهذا التوزع الجغرافي أنماط الحياة الاجتماعية في الحجاز ،فمن السكان من سكن المرتفعات الجبلية ،فتأرجحت حياته بين البداوة وحياة أهل الحضر ،ومن هؤلاء الذين سكنوا السروات قبائل : ثقيف ،وفهم ،وعدوان وبعض الأزد . ومن شعراء فهم تأبط شرا، وهو أحد الشعراء الصعاليك ،ومن الأزد الشاعر الصعلوك الشّنفرى ، ومنهم :عدي بن وداع ،ومعمر بن حمار البارقي،وعبيد بن عبد العزى السلامي ،ومن قبائل السروات الجنوبية قبيلة خثعم ،وبجيلة ،وبنوجشم الذين ينتمي اليهم الشاعر المشهور دريد بن الصّمة .

كما سكنت هذيل المرتفعات المحيطة بالطائف ،وجبل غزوان . وفي هذيل أكثر من سبعين شاعرا مشهورا – على حد قول ابن حزم الأندلسي (٦). ومنهم أبو ذؤيب الهذلي ،وقد أدرك الاسلام وأسلم ،وأبو خراش وقد أسلم أيضا ،والمتنخل ،وصخر الغيّ ،وساعدة بن جؤية ،وقيس بن عيزارة .

ومن قبائل السروات أيضا مزينة ، واليها ينتمي زهير بن أبي سلمى ،لأن أباه كان منها ،ويعد في شعراء نجد لأنه عاش وتربى في أخواله من غطفان .

ومن سكان الحجاز من سكن المدن

---

٢ – صفة جزيرة العرب : ٤٧ – ٤٨ .
معجم ما استعجم : ٧/١ ،١٦ – ١٧ .
معجم البلدان : ١٣٧/٢ – ١٣٨

٣ – تاريخ العرب المطول : ١ / ٢٠

٤ – تاريخ العرب المطول : ٢٠/١

٥ – معجم البلدان : ٤ / ٣٣٨

٦ – جمهرة أنساب العرب : ١٩٨

المشهورة ،والمناطق الزراعية ،فكانت حياته قريبة من حياة الحضرالمستقرين. ومن هؤلاء قبيلة قريش ،وقد سكنت في مكة . ومن القبائل التي نزلت مكة أيضا خزاعة ومن شعرائها القدامى : قيس بن الحدادية، وهو من الشعراء الصعاليك المخلوعين .

ومن حواضر الحجاز يثرب . ومن سكانها الأوس والخزرج،وهما من الأزد .

ومن سكان الحجاز البداة غيرالمستقرين وقد أقاموا في الواحات ،باحثين عن مواطن الكلأ والماء . وقد سكنوا غالبا في شمالي الحجاز وشرقيه ،ومن هؤلاء قبائل : جهينة ، وبليّ ،وجذام ،وبعض غطفان . وبنو سليم، ومن شعراء سليم المشهورين: خفاف بن ندبة ،والشاعرة الخنساء .

وكان اقليم العروض الذي شمل منطقتي اليمامة والبحرين ،من المناطق التي توافرت فيها المياه بشكل أكثر نسبيا ،من المناطق الأخرى. ففي اليمامة وجدت منطقة الأفلاج التي كانت تأتيها المياه من الجبال المحيطة (٧). وفي البحرين توافرت المياه أيضا في بعض المناطق من مثل نهر محلّم الذي أشار اليه الهمداني(٨)

ولتوافر المياه في اليمامة ،تحوّل مجتمعها الى مجتمع مستقر،عمل أهله بالزراعة والصناعة ،وتركوا حياة التبدي والتنقل(٩)

أما مجتمع البحرين،فقد تحول أيضا الى مجتمع قريب من الاستقرار ،حيث عمل سكانه بالزراعة وبصيد السمك والملاحة .ولكن مناطق الاستقرار تلك كانت محاصرة بدائرة الصحارى الجافة التي كانت تمتد من وسط جزيرة العرب الى الجنوب والشمال،فقد فصلت صحراء الدهناء المقفرة سهول البحرين عن اليمامة ،وامتدت هذه الصحراء حتى الربع الخالي في الجنوب ،وصحراء السماوة في الشمال،وقد عاش في هذه الصحارى أعداد كبيرة من العرب المتنقلين بين نجد والعروض .

ومن قبائل اقليم العروض المشهورة قبيلة بكر بن وائل التي امتدت شمالاحتى أطراف سواد العراق ،وسكنت الجزيرة الفراتية . ومن بكر قيس بن ثعلبة ،وقد سكنت اليمامة ،والى قيس تنتمي ضبيعة التي ظهرت فيها مجموعة من شعراء الجاهلية المشهورين من مثل : الأعشى ميمون بن قيس ،والمرقش الأصغر،وطرفة بن العبد، وعمرو بن قميئة ،والمسيّب ،والمتلمس .ومن بكر بنو يشكر،ومن شعرائهم :الحارث بن حلّزة ،والمنخّل،وسويد بن أبي كاهل .

ومن قبائل العروض أيضا: بنوعامر ابن صعصعة ،وقد نزلت منهم بطون في اليمامة والبحرين ،بالاضافة الى منازلهم في نجد ومنهم : بنو قشير ،وجعدة، وبنو عقيل وسكنت العروض أيضا: بطون من تميم ،فسكن منهم بنو سعد في البحرين ،وبنو الأعرج في اليمامة ،ومن بني سعد: المخبّل السعدي والسليك بن السلكة ،وهو أحدالصعاليك، وسلامة بن جندل ،وعبدة بن الطبيب الذي أدرك الاسلام وأسلم . ومن قبائل العروض أيضا عبد القيس ،وقد كانوا في البحرين مع بكر وتميم وغيرهما. ومن شعرائهم المشهورين : المثقّب ،وابن أخيه الممزّق .

وكان اقليم نجد الذي يشغل وسط جزيرة العرب منطقة بداوة ، اذ تحيط الصحاري به من أطرافه الثلاثة " ففي الشمال رملة عالج (النفوذ) ،وصحراء السماوة (بادية العراق) وفي الشرق الدّهناء التي تصل الصحاري الشمالية بصحارى الربع الخالي .

لم يعرف في نجد مركز حضاري معروف

---

٧ ـ معجم البلدان :٤ / ٢٧١

٨ ـ صفة جزيرة العرب : ١٦٠

٩ ـ انظر : المفصّل في تاريخ العرب قبل الاسلام: ٩/٦٥٧/٦٥٨ .

وذلك لأن مناخها كان جافا ،وأمطارها قليلة ،تزداد في جبلي أجا وسلمى (١٠) وليس فيها مورد للماء الا من الينابيع والمياه المتبقية في بطون الأودية بعد سقوط الأمطار .

ولطبيعة نجد هذه كانت قبائلها بادية ،نفرت من سكنى المدن والحواضر، وكرهت العمل في الزراعة وحياة الاستقرار، وقد امتدت بعض قبائلها شمالا حتى حدود المياه في الفرات ،وعبر بعضها الفرات فسكن الجزيرة الفراتية ، الا أن هؤلاء الذين عبروا لم يحمد شأنهم ،ولاشأن شعرائهم .

ومن قبائل نجد قبيلة طيّىء ،ومن شعرائها المشهورين حاتم الطائي الذي عرف مثلا أعلى للكرم والجودة وأبو زبيد الذي أدرك الاسلام ولم يسلم ،وفيها مجموعة من الشعراء المغمورين ،جمع أشعارهم الدكتور يحيى الجبوري في كتابه " قصائد جاهلية نادرة " منهم بشر بن عليق،وأبو قردودة وعامر بن جوين (١١).

ومن قبائل نجد بنو أسد الذين اشتهر فيهم مجموعة من الشعراء منهم : عبيد بن الابرص ،وبشر بن أبي خازم ،وأحد مواليهم سحيم عبد بني الحسحاس الذي أدرك الاسلام وأسلم ،وعمرو بن شأس ،والمرار بن سعيد الفقعسي .

ومن قبائل نجد غطفان ومنها عبس وذبيان . ومن شعراء غطفان : عنترة بن شداد ،وعروة بن الورد ،وهما من عبس، والنابغة الذبياني ،والشماخ بن ضرار، والحادرة (الحويدرة) والحصين بن الحمام، وكلهم من ذبيان .

ومن قبائل نجد المشهورة بنوعامر بن صعصعة . ومن شعراء بني عامر المشهورين لبيد بن ربيعة ، وقد أدرك الاسلام وأسلم . وعامر بن الطفيل . وفي عامر كثير من الشعراء المجهولين أيضا،تتوزع أشعارهم في كتب الأخبار والسير والتاريخ والأدب واللغة . وقد قام الدكتور عبد الكريم يعقوب بجمع وتوثيق أشعار ثلاثين شاعرا وشاعرة منهم في كتابه " أشعار العامريين الجاهليين " منهم خداش بن زهير ، وعوف ابن الأحوص ، ومعاوية بن مالك ، ويزيد ابن الصعق، وخالد بن جعفر الكلابي ، وعامر ابن مالك وغيرهم (١٢) .

ومن قبائل نجد غني ، ومن شعرائها الطفيل بن عوف ، ومحمد بن كعب الغنوي.

وامتدت ديار بني سليم من الحجاز الى عالية نجد بالقرب من خيبر ، ووادي القرى الى حدود الجبلين أجا وسلمى . ومن قبائل نجد تميم ، ومن شعرائها المشهورين : أوس بن حجر ، وعلقمة بن عبدة ، والأسود بن يعفر ، وعدي بن زيد العبادي .

أما اليمن فقد كانت تشغل منطقة جنوبي الجزيرة العربية كلها ، وكانت نسبة الأمطار فيها أكثر من مناطق الجزيرة الأخرى ، ومواسمها معروفة . وقد قامت فيها زراعات مشهورة ، وتحول المجتمع اليمني بسبب ذلك الى مجتمع حضري مستقر، ولكن لم يكن الأمر في مرحلة ظهور الاسلام وقبلها بقليل على هذه الشاكلة من الحضارة والاستقرار ، ذلك لأن الحضارة اليمنية الزراعية كانت قد انهارت نهائيا ، وأكمل سكان اليمن تشتتهم الذي بدأ منذ قرون ، عقب سيل العرم ، ومن بقي منهم لم تصل أخباره الينا بشكل كاف ، فقد أهمل الرواة وعلماء

---

١٠ ـ تاريخ العرب المطول : ٢٠/١

١١ ـ قصائد جاهلية نادرة : ١٨٥-١٦٧-١٧٥

١٢ ـ أشعار العامريين الجاهليين : ٢٣ ، ٤٦، ٥٢، ٥٨ ، ٦٣، ٦٧ .

الانساب أمر هذه القبائل لاعتقادهم أن عربيتها تخالف عربية أهل الشمال التي نزل بها القرآن .

وعلى أية حال ، فاليمن القديم الذي وصفوه بالخضرة ، وكثرة الزراعات ، حاصرته رمال صيهد ، والأحقاف ، ووبار ، وقد سميت هذه الصحارى فيما بعد بصحارى الربع الخالي .

ومن القبائل التي بقيت في موضعها همدان ، وأشعر، وكندة ، وخولان ، ومن شعراء كندة امرؤ القيس بن حجر ، وقد عاش في نجد ، وعاصر انحسار ملك قبيلته، وامرؤ القيس - وان كان يمني الأصل - شاعر نجدي لانه ولد وتربى وعاش في نجد

ومن القبائل في اليمن ، أيضا، مذحج وبجيلة، وخثعم . ومن شعراء مذحج : عبد يغوث بن وقاص الحارثي ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي الذي أدرك الاسلام وأسلم .

مما تقدم نلحظ أن الصحارى شغلت مساحات واسعة من بلاد العرب ، وكانت تشكل حاجزا يفصل مناطق الماء والخصب بعضها عن بعض ، ويفصل أيضا بين تركيبتين اجتماعيتين وجدتا في جزيرة العرب ،مجتمع الحضر ، الذي اتهم بسهولة المنطق وبالليونة وضعف اللغة ، ومجتمع البداوة الذي كان المجتمع الأمثل للعربي ، وقد فرض مقاييسه الجمالية على الذوق العربي حتى مراحل حضارية متقدمة .

لقد جعل الجفاف قسما كبيرا من العرب بداة متنقلين في الواحات ،باحثين عن الاخضرار والمراعي ، ينتظرون غيث السماء الذي لايعرفون وقت سقوطه ؟ وكيف ؟

هذا الغيث كان حاجة أساسية للعربي بدويا كان أم حضريا ، ولكنه للبدوي ألزم فحاجته اليه تزداد، اذ لانهر دائم الجريان في بلاده (١٣) واعتماده الأساسي يكون على الامطار التي تبعث الحياة في رمال صحرائه المحرقة ، وبانقطاع الأمطار يحكم على البدوي العربي بالموت عطشا أو الرحيل ، والرحيل كان آخر شيء يفكر فيه؛ فقد أحب بلاده ، وتغنى بجمال رمالها، وتمسك بها، رافضا استبدالها بحياة أخرى .

لذلك كله ، كان المطر عماد الحياة، ومركز اهتمام العربي الأول ، ولم يكن عنده ظاهرة ضئيلة الشأن ، بل ربطها بالحياة والموت ، والآلهة ، وحاك حولها الأساطير .

وحاجة العربي الشديدة للغيث جعلته يبحث عن وسائل بدائية للتحكم بالطقس وقد عرف العرب بعض طقوس السحر التشاكلي(١٤)، واستعانوا بها ولجؤوا اليها لاستنزال الأمطار ودرء خطر الفيضان . ومن هذه الطقوس مايحكيه الجاحظ عن عادات العرب في الاستمطار بالبقر بعد اشعال النيران في أذنابها وعراقيبها (١٥).

١٣- يقول الاصطخري: " ولانعلم بأرض العرب نهرا ولا بحرا يحمل سفينة " المسالك والممالك: ٢١. ويقول فيليب حتي: "لايوجد في الجزيرة نهر واحد دائم الجريان يصب ماؤه في البحر ، وليس في أنهارها الصغيرة مايصلح للملاحة ، وقد عوضت عن الانهار بشبكة من الأودية تجري فيها السهول حين تفيض مياه الأمطار" تاريخ العرب المطول : ١/ ٢١ .

١٤ - لفهم السحر التشاكلي ، والتعرف الى نماذج من طقوسه عند البدائيين،انظر الغصن الذهبي : ١/١٠٩- ١٨٠و ٢٥٠ وما بعدها. وهو قائم على مبدأ التقليد لعملية سقوط الأمطار وتجمع السحب وأصوات الرعد، ومنظر البرق .

١٥ - انظر: الحيوان: ٤/٢٦٦، الأزمنة والأمكنة ٢/١٩١ ،نهاية الأرب في فنون الأدب ١/١١٠.

وقد أشار أمية بن أبي الصلت الى هذا الطقس في أثناء كلامه على أزمة شديدة أصابت الناس ، فخرجوا يسوقون البقر الهزيلة الى التلال ، وقد أشعلوا النيران في أذنابها (١٦). كما وردت اشعار اسلامية تؤيد وجود هذا الطقس عند الجاهليين (١٧). وقد ظهر أثر طقوس الاستمطار السحرية في بعض الاشعار الجاهلية ، فبرز دور الساحر القديم فيها؛ ومن هذه الاشعار قصيدة تنسب لامرئ القيس يفخر فيها بمقدرته الشعرية عندما يلقنه أحد أصحابه من الجن الشعر فيرتج، وكأن قصف الرعد في صدره ، ثم يستطرد الشاعر ليصف سقوط الأمطار وغزارتها وما رافقها من أصوات وبشكل قريب الشبه من طقوس السحر التشاكلي القائمة على محاكاة أصوات الرعد ، وسقوط الأمطار (١٨).

ومما يوحي بدور الساحر القديم في طقوس الاستمطار بروز ظاهرة السقيا في الشعر الجاهلي ، حيث يظهر الشاعر ، وكأنه موكل بأمر مراقبة البرق والمطر والسحاب، يفرح به ويرسله الى أهله وأحبابه وأمواته ودياره .

فمن الصور المتكررة بنمطية واحدة وبعناصر اسلوبية متقاربة ، صورة الشاعر الأرق لمرأى البرق :

أرقت له ، ونام أبو شريح
اذا ماقلت قد هدأ استطارا(١٩)
ارقت له ذات العشاء كأنه
مخاريق يدعى وسطهن خريج(٢٠)
أرقت لمكفهر بات فيه
بوارق يرتقين رؤوس شيب (٢١)

وكثيرا ماتطالعنا صورة الشاعر وهو يطلب من رفاقه أن يشاركوه الأرق والاهتمام والمراقبة :

ألم تأرق لذا البرق اليماني
يلوح كأنه مصباح بان(٢٢)
فقلت للشرب في درني وقد شملوا
شيموا وكيف يشيم الشارب الشمل(٢٣)
أعني على برق أراه وميض
يضيء حبيا في شماريخ بيض(٢٤)

كما تكرر في لوحات المطر ذكر قعود الشاعر للبرق وحيدا بعد أن نام عنه أصحابه :

قعدت وحدي له وقال أبو
ليلى: متى يغتمن فقد دأبا (٢٥)
قد نمت عني وبات البرق يسهرني
كما استضاء يهودي بمصباح(٢٦)
قعدت له ذات العشاء فلم أنم
لدى مرقب من هضب نخلة فارع (٢٧)

وبعد الأرق والمراقبة والاهتمام ، والقعود للبرق ، يأتي المطر غزيرا ، فيذكر الشاعر البلاد التي أصابها وغمرها بلدا بلدا وموضعا موضعا. فامرؤ القيس يسقي : (واردات) و(القليب) و(لعلعا)و(عنيزة) و(ذات النقاع) فيقول (٢٨)

سقى واردات والقليبَ ولعلعا
مُلثّ سماكيّ فهضبة أيهبا
فمرّ على الخبتين خبتي عنيزة
فذات النقاع فانتحى وتصوبا

---

١٦ – انظر ديوانه :٣٩٦ – ٣٩٩
١٧– انظر: الأزمنة والأمكنة :٤٢٧/٢، نهاية الأرب في فنون الأدب: ١١٠/١ ،بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ٣٠٢/٢
١٨ – ديوانه : ٣٢٥ – ٣٢٩
١٩ – ديوان امرئ القيس : ١٤٧
٢٠ – ديوان الهذليين. شعر أبي ذؤيب القسم الاول / ٥١ .
٢١–ديوان عدي بن زيد العبادي: ٣٧
٢٢ – شعر عمرو بن معدي كرب : ١٧٦
٢٣ – ديوان الاعشى : ٩٣
٢٤ – ديوان امرئ القيس : ٧٢
٢٥ – شرح ديوان لبيد : ٢٩
٢٦ – ديوان أوس بن حجر: ١٥
٢٧ – ديوان النابغة الذبياني : ١٨٧
٢٨ – ديوانه : ٣٤٠

فلما تدلى من أعالي طمية
أبست به ريح الصبا فتحلّبا

ويسقي أبو قردودة الطائي (واردات) و(الرداة) و (الغبيط) و(جبلي أجا وسلمى) فيقول (٢٩).

سقى واردات فهضب الرداة
فانعق فوق الغبيط انعقاقا
سقيت به جبلي طيىء
ولم أسق به شاما أو عراقا

وتعود بنا ظاهرة الأماكن المطمورة الى ظاهرة محاكاة الطبيعة واغرائها بالامطار عن طريق السحر، فمثلما يعتقد الجاهلي انه يصبح شجاعا قويا إن أكل لحم السباع (٣٠)، يعتقد الشاعر الجاهلي أنه يستطيع السيطرة على الطبيعة ،واخضاعها لقوانينه ،عندما يحاكي فعلها، فيعدد المواطن والاودية والمواضع التي يرغب في أن يغمرها ماء المطر .

ولأهمية المطر في حياة الجاهليين ربطوه بالآلهة في مراحل متقدمة ،وحاكوا حوله الأساطير. فقد عرف العرب بعض الآلهة التي اعتقدوا أنها ترسل اليهم الامطار والخصب من مثل هبل (بعل) وقزح . فكان هبل من الآلهة التي وكل اليها العربي أمر الرزق والخصب ،فأقام صنمه على البئر في جوف الكعبة ،حيث تجمع الهدايا ،وضرب القداح عنده (٣١). وهبل هو الاله (بعل) عند الساميين عموما وهو الذي عرف لها للسماء ،ومسؤولا عن انزال الأمطار،وربما تكون عبادته قد انتقلت عن طريق شبه جزيرة سيناء الى جزيرة العرب كما يرى المستشرق نولدكه (٣٢)

وقد عرفت العربية معاني لكلمة البعل ،تتصل بعبادته أو بالصورة التي عرف بها عند الساميين ، مما يرجح أن تكون جزيرة العرب – وهي موطن الساميين الأول – منطلق عبادته قبل هجرة الساميين عنها (٣٣).

أما قزح فقد أدى عند الجاهليين دور الفارس الذي يرسل نباله من البرق والرعد والمطر . وقزح من الاصنام القديمة التي فقدت منزلتها وأهميتها عند العرب قبل ظهور الاسلام (٣٤) وقد اعتبر وقتها أحد الشياطين ،وحرّم ذكر اسمه (٣٥).

وقد ربط العرب بين المطر والنجوم، فاعتقدوا أنها ترسل لهم الأمطار بأنوائها واعتقاد العرب بالانواء يتصل بعبادتهم للنجوم . فقد عبد العرب من النجوم الثريا، وقد ارتبطت عندهم بالخصب ،فاعتقدوا أنها ترسل بأنوائها الخصب لهم والثروة حتى ذهبت بعض الآراء الى أنها مشتقة من الثراء ،وانها سميت بذلك لغزارة نوئها، وقد ألهتها جميع العرب(٣٦) ولشهرتها جعلوها مرادفة لكلمة نجم . فاذا قالوا طلع النجم كانوا يريدون به الثريا (٣٧)،

---

٢٩ – قصائد جاهلية نادرة : ١٧٢

٣٠ – كان العرب يعتقدون أن أكل لحم السباع يزيد في الشجاعة والقوة ،وكانوا يعلقون على صغارهم سن ثعلب ،أو سن هرة لحمايتهم من الخطفة والنظرة ، انظر: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ٢/٣٣٢ – ٢٢٥

٣١– كتاب الاصنام : ٢٨ جمهرة أنساب العرب: ٤٩٢

٣٢– انظر نص المستشرق نولدكه الذي ترجمه د.محمد عبد المعين خان في كتابه : الأساطير والخرافات عند العرب: ١٢٤.

٣٣ – انظر معاني كلمة بعل في لسان العرب (بعل/٣١٥/٣١٦)كما ورد ذكره في القرآن الكريم " أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين" الصافات : ٢٢٥ .

٣٤– المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/٢٨٧

٣٥– انظر الفائق في غريب الحديث: ٢ /٣٤٢ الأزمنة والامكنة ٢/١٧٥، نهاية الأرب في معرفة أحوال العرب : ١/٩٣ .

٣٦– في طريق الميثولوجيا عند العرب : ١٠٠

٣٧ – لسان العرب (نجم) /٤٣٥٧ – ٤٣٥٨

كما عبد العرب الدّبران – وهو نجم صغير يتلو الثريا – فقد اعتقدوا بأنهم يمطرون به ،ولكنهم تشاءموا بالمطر الذي يكون بنوئه (٣٨). وعبدوا أيضا – القمر والشمس والزهرة . وقد أشارت النصوص الحفرية المدونة بالمسند الى أن القبائل العربية البائدة في الجنوب قد تعبدت لهذا الثالوث، فكان القمر عندهم الأب الذكر والزوج،وكانت الشمس هي الأم ،أما الابن عشتر(الزهرة) فناتج عن هذا التزاوج السماوي (٣٩).

ومن رموز القمر عند العرب الصنم ودّ، وكان على صورة رجل مقاتل ،وكانت عبادته معروفة بدومة الجندل وفي وادي القرى(٤٠).

ومن رموز القمر الثور ، اذ رمز للقمر في اليمن بثور ،وكان اسمه في كتابات المسند الاله ثورا . وقد وجدت صور رأس الثور في الجزيرة العربية بكثرة، اذ كانت الثيران أكثر الحيوانات التي يضحى بها للاله القمر(٤١) .

وربما يكشف هذا اللقاء بين الثور والاله القمر سبب عدم مصرع الثور في الشعر الجاهلي في معركته مع كلاب الصيد(٤٢) .

ولأهمية المطر أيضا ارتبط ذكره ببعض الاساطير ،فقد عرف العرب مايمكن تسميته بالأساطير التعليلية . وهي الأساطير التي تفسر مظاهر الطبيعة من رعد وبرق ومطر بمنطقة الانسان البدائي . وقد بقيت صورة هذه الاساطير في أخبار أدب صدر الاسلام ،وما رافقها من شروحات،وتفسيرات للنص القرآني . فقد فسّر الرعد في قوله تعالى :" ويسبّح الرعد بحمده "(٤٣) بأنه ملك موكل بالسحاب يسوقه من بلد الى بلد وهو يسبح،كما يسوق الحادي الابل ،وكلما خالفت سحابة صاح ،فاذا اشتد غضبه طارت النيران من فيه ،فهي الصواعق(٤٤).

وعرف العرب أيضا مايمكن تسميته بالأساطير الرمزية ،وهي في الأصل تعليلية، ثم تجسدت في رموز تحمل ملامح قصصها القديمة ،من ذلك مايتصل بالغميصاء،وسهيل والشّعريين ،فقد كانت – بحسب الاسطورة– في مجرة واحدة ،فانحدر سهيل فصار يمانيا ،وتبعته الشّعرى اليمانية ،فعبرت البحر أو المجرة فسميت عبورا ،وأقامت الغميصاء مكانها تبكي حزنا لفقدها سهيلا (٤٥) .

وفي هذه الاسطورة كسابقتها ملامح عربية واضحة ،ففيها ملامح حياة التنقل والانتجاع ،وترك الديار ،وما يتركه ذلك من ألم وحزن وتفريق بين الأحبة .

لقد علّمت البيئة الصحراوية العربي أن يتتبع مساقط الغيث ،ويراقب البرق والسحب ،ويحاول التأثير في الأمطار بالسحر والأدعية ،وتقديم القرابين ،فالمطر يسقي أرضه وينبت المراعي الخضراء في ربوعه ، فتتجمع القبائل ،فتنشأ اللقاءات السعيدة ثم ينقطع هذا الغيث الالهي ،فتجف الزروع

---

٣٨ – الأزمنة والأمكنة ١/١٧٠، ١٨٧

٣٩ – المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/١٦٦–١٦٩، الفلكلور والأساطير عند العرب ٩٥ .

٤٠ – كتاب الاصنام : ٥٥ – ٥٦

٤١ – الفلكلور والاساطير عند العرب: ١٠١ . وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام: ٦/١٧٤ – ١٧٦ .

٤٢ – انظر نماذج من المعركة بين الثور وكلاب الصيد في: ديوان الاعشى: ٢٤٩، ٣١٥، ٣٣١– ٣٣٢، ٣٦١، ٣٩٨، ٣٩٩، ديوان النابغة الذبياني: ١١٠، ٢٥٢، ٢٣٧، ديوان بشر بن أبي حازم: ٨٢، ١٠٣ ديوان امرئ القيس : ١٠٢

٤٣ – الرعد : ١٤

٤٤ – تفسير الطبري : ١/ ٣٣٨ ،وانظر تفسير الخازن : ٤ / ٨

٤٥ – بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ٢ / ٢٣٩ ،لسان العرب(غمص) / ٣٢٩٨ .

والضروع ،وتختفي من الأرض الجنة الأرضية التي كانت مليئة بالأزهار،عابقة بشذاها العطر ،مأهولة بالناس ومواشيهم ،فترحل القبائل ،ويتفرق الأحبة ،وتنقلب الأرض الخضراء يبابا ،ويبقى العربي يحلم وينتظر دورة خصب جديدة .

ان تناوب الخصب والجفاف في حياة الجاهلي أدى الى بروز صورتين أساسيتين تكررتا عند معظم الشعراء ،صورة الأرض الميتة الخراب ،تنتظر المطر ،وصورة الأرض الممطورة حقيقة أو تخيلا ،وقد انقلبت فيها الحياة الى جنة مليئة بالخصب والحياة. وقد تأتي الصورتان في قصيدة واحدة ، لتعبرا عن نمطية الحياة التي عاشهاالجاهلي وتبينا نظرته الى المطر كعامل بعث واحياء للارض الموات . وسنرى ذلك واضحا في نص لبيد بن ربيعة العامري التالي الذي سنتناوله بالدراسة الفنية حيث يقول: (٤٦)

١- عفت الديار محلّها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

٢- فمدافع الريان عرّي رسمها
خلقا كما ضمن الوحيّ سلامها

٣- دمن تجرّم بعد عهد أنيسها
حجج خلون حلالها وحرامها

٤- رزقت مرابيع النجوم وصابها
ودق الرواعد جودها فرهامها

٥- من كل سارية ،وغاد مدجن
وعشية متجاوب إرزامها

٦- فعلا فروع الأيهقان وأطفلت
بالجلهتين ظباؤها ونعامها

٧- والعين ساكنة على أطلائها
عوذا تأجّل بالفضاء بهامها

٨- وجلا السيول عن الطلول كأنها
زبر تجدّ متونها أقلامها

٩- أو رجع واشمة أسفّ نؤورها
كففا تعرّض فوقهنّ وشامها

١٠- فوقفت أسألها ،وكيف سؤالنا
صمّا خوالد مايبين كلامها

١١- عريت وكان بها الجميع فأبكروا
منها وغودر نؤيها وثمامها

يبدأ لبيد قصيدته تلك بجملة خبرية (عفت الديار) ترصد الحالة الراهنة للديار التي توحشت بعد خلوها من سكانها وأصبحت خالية من العناصر البشرية والحيوانية الأليفة . انه يخبرنا بالجفاف الذي حلّ بالديار ،فهزم فيها الحياة ،واحال الحركة فيها الى سكون . لقد سكنت الديار وانطفأت الطبيعة ،وانهزمت الحركة فيها وامتد السكون . وقد أسهم الطباق في البيت الأول (محلّها فمقامها) في استيفاء الاندثار والانمحاء في الأمكنة كلها،فقد درست الأماكن التي كان القوم يحلون بها، والأماكن التي كانوا يرتحلون عنها (مقامها) ،كما أسهمت الثنائية في كلمتي (غولها ورجامها) في ترسيخ معنى شمولية الجفاف وشدته ،ولكن رغم قسوة الطبيعة وسكونها ورغم خلوها من الأنيس لم تزل تحمل في طياتها علائم الخصب والحياة ،متجسدة بمجاري الماء (مدافع الريان) التي ماتزال على الرغم من فقدها بعض ملامحها ظاهرة بادية للعيان ،كأنها كتابة منقوشة على حجر،ولا شك أن ادخال صورة الماء الجاري الى المشهد،يحمل دلالات نفسية عند الشاعر ،فهو متمسك بالماء في مواجهة الجفاف والخراب واليباس ،يتمنى أن تبعث الحياة في الديار ،ويرحل الجفاف عنها .

ان مجاري الماء لم تمح أثارها، فهي تشبه الكتابة على الحجر(٤٧) ،والكتابة

---

٤٦ - شرح ديوان لبيد : ٢٩٧ - ٣٠٠

٤٧- فهمت هذه الصورة قديما فهما مختلفا عما ذكرنا ،فقد أشار الخطيب التبريزي الى أن وجه الشبه بين مدافع الريان والكتابة على الحجر هو الامحاء =

على الحجر تصمد أمام عوادي الزمن وتقلّب الأيام ،ولعلّها كذلك في رغبات الانسان الجاهلي ، انها رمز كامن في(لاوعي الجماعة) يكشف عن تعلقها بالماء ،وأهميته لحياتها، لذلك بقيت هذه المجاري ،وستبقى أبدا ، فهي رمز التواصل والحياة .

أما الرّيان ،وهو اسم واد في حمى ضريّة ،وهي من منازل بني عامر قوم الشاعر- فلا ندري مدى تدخل القوى الواعية للشاعر في اختياره ،ولكنه يوحي أيضا - على أية حال - بصورة الرّواء وكثرة الماء ،وبخاصة أنها جاءت مقترنة بصيغة الجمع (مدافع) التي تشير أيضا الى قوة اندفاع الماء وغزارته .

ان حبّ البقاء واستمرار الحياة هما اللذان يشكلان - حتى الآن- محور اهتمام الشاعر ،وقد ظهر هذا الامر جليا في البيت الثالث ،فالدمن - وهي آثار الناس وبقايا ماسودوا من رماد - قد تقادم بها الزمن ومرّت عليها السنون ولكنها رغم ذلك مازالت جاثمة خالدة ،تذكر بالانيس الذي ترك مياسمه عليها. لقد تكشف الزمن عند لبيد في شهور حلال،وأخرى حرام ،وهو لايريد الشهور التي يحرّم فيها القتال،والأشهر التي يباح فيها ،وانما يريد السنوات التي يعبر عنها بالشهور الحلال والحرام التي كانت محطات سلم وراحة للانسان الجاهلي.

وقد كان للطباق في الكلمتين(حلالها وحرامها) أثر واضح في ترسيخ البعد الزماني ،بل في مدّالزمن نفسه ،فالديار كانت في هذه الفترة منعزلة عن حركة الواقع من حولها ،فلم تشهد تغيرات بشرية ،ولا مرور أقوام ،ولا اقتتالهم ولا اقامتهم . كما كان للفعلين(تأبد وتجرّم) أثر آخر في تعميق قسوة الجفاف في أنفسنا ،بما يحملانه من دلالات على تعاقب الوحشة واستمرارها،ولعل لبيدا أراد من ترسيخ مثل هذه المعاني تحضير الطبيعة لسقوط الأمطار ،واظهار فعلها الاحيائي . فحتى يعود الناس لابد من أن تعود الى الديار دورة الحياة ، ولابد من أن تنتهي حالة الجفاف بقسوتها . والحياة لاتعود بلا مطر يغيّر وجه الكون والأرض ويغري الحيوان والانسان بالعودة الى الديار المهجورة . وتأتي الأمطار قوية عظيمة - فعلا الهيا بمفهوم لبيد وجماعته - ترسله النجوم ،فتنتشي الأرض بمطر غزير لايقصره لبيد على نوع أو شكل . بل هو مطرمتنوع مترادف غزير كثيف ،راعد وليّن وهادئ كما لايقصره على زمن معين ،فهو يستغرق أزمنة ثلاثة ، اذ يأتي ليلا من سارية ، والأمطار الليلية أحبها الشعراء الجاهليون لارتباطها بالغزارة والهدوء ،ويأتي غداة، ومطر الغداة هادئ لطيف ،جميل سقوطه في بداية النهار ،حيث يكون الانسان صافي السريرة يبدأ يوما جديدا . ويأتي عشية أيضا ،ومطر العشي يقابل مطر الغداة ،وهو مريح للانسان لأنه غسيل مادي ،ومعنوي لغبار النهار وأدرانه ،وبالاضافة الى ماحملته ألفاظ " الساري والمدجن والغادي والعشية " من دلالات نفسية ،فانها تدل أيضا على براعة لبيد الفنية في استيفاء المعنى والزمن حقيقة وشعورا وخيالا .

وهذه الامور كلها تعكس رغبة لبيد في استمرار هطول الأمطار وديمومتها من من جهة ،وتكشف عن اسلوب من أساليب

= والاندثار ،ذلك أن الكتابة على الحجرتكون بلون لايختلف عن لون الحجرفتصبح غير مقروءة من بعيد يقول"المعنى أن آثار هذه المنازل كأنها كتاب في حجارة لايتبين من بعيد لأن نقشه ليس بشيء مخالف للونه ،فإنما تبين لمن يقرب منه" شرح القصائد العشر: ١٩٦، ١٩٧.

الشاعر في الاعتماد على سرد التفاصيل، واستنفاد عناصر التعبير من جهة أخرى.

ويظهر مثل ذلك في المطابقة بين(جودها ورهامها) فقد أراد بها استيفاء أنواع المطر ،واثبات شموليتها لجميع أنحاء الديار لقد أصابها المطر الشديد ،الغزير وأصابها الضعيف اللين أيضا .

لقد أراد لبيد وصف الأمطار بالغزارة والاستمرار ،فقدم صورة مقابلة لصورة الجفاف والقحط . وما ان يتأتى له ذلك حتى تعود الى الديار مظاهر الحياة والخصب ويظهر المطر عامل احياء ونماء وتجدد فينمو النبات وتعلو فروعه ،وتلد الظباء والنعام . وقد ترافقت ولادة الطبيعة وولادة الظباء والنعام في زمن واحد (فعلا وأطفلت) . ويأتي الفعل(أطفلت) غنيا بدلالات تجدد الحياة واستمرارها،فهو يجمع الامهات وصغارها في لمحة واحدة ،وينقل مشهدا جماعيا منسجما متناغما يتناسب مع لوحة المطر والنبات والحياة التي رسمها الشاعر .

ومن أشكال الحياة الأخرى التي وجدت بعد سقوط الأمطار مشهد البقرات الوحشية المطمئنة الهادئة التي تقيم بسلام ودعة ترقب صغارها الحديثات الولادة ،وقد أصبحت قطيعا صغيرا يتنقل على مرأى الامهات ومسمعها ،في فضاء واسع عريض لقد أوحت كلمة (ساكنة) بمعاني الهدوء والسكينة والأمان والاستقرار،وأوحت أيضا بمعاني التوالد والعطاء والأمومة وذلك عندما ربط الشاعر بينها وبين كلمة (أطلائها) بحرف الجر(على). فالهدوء والسكينة والأمان أمور لاتكتسب معناها الحقيقي الدال اذا لم تربط بمعاني الأمومة ،لأن الأمومة اعاذة للحياة واستمرار لها ، وتلك ظاهرة وفرّها سقوط الأمطار . أما لفظة تأجّل) فتعبر عن التوالد والتعاقب، وظهور جيل بعد جيل ،وهي تغني المشهد أيضا بصورة الحياة التي استيقظت وتحركت بعد نزول الأمطار .

ولا ننسى ونحن في معرض كلامنا على تحولات الطبيعة بعد سقوط الأمطار أن نشير الى أنّ الحيوانات التي ظهرت في المشهد هي حيوانات أليفة أحبها الجاهلي ووجد فيها نماذج للجمال ،فهي مسالمة وديعة ،تختلف بشكل واضح عن الحيوانات المتوحشة التي ظهرت في مشهد اقفار الديار وعريها (تأبد) كما تغلب عليها العناصر المؤنثة ،وكأنما أراد الشاعر من ذلك ترسيخ معاني الاستمرار والتوالد والنماء وهذه المعاني تظهر بشكل خاص في الحيوانات المؤنثة الأليفة . وقد أسهمت في هذه اللوحة في ابراز دور المطر في احياء الأرض واخصابها ،واعادة الحياة اليها، وقد عاودت هذه الدلالات ظهورها في البيتين الثامن والتاسع ، اذ تظهر السيول مجددة للحياة القديمة ،وتظهر بالمقابل معالم الطبيعة الخالدة بفعل الكتابة التي تعيد من جديد معالم الحياة الى عالم الاندثار والموات .

لقد ذكر لبيد الفعل (تجدّ) في صيغة المضارع ،فهو يدل على الحاضر والمستقبل انه بصيغته تلك يرفض الانصياع لعوامل الموات التي مثلها الفعل الماضي (عفت) ،ومثلتها الديار الحالية التي تأبدت . ففيه حركة مستمرة من الحاضر الى المستقبل،تحسد دور الأمطار الأبدي في استمرارية الحياة . ومما يؤكد هذه الاستمرارية أيضا ماذكره لبيد في البيت التاسع من تشبيه فعل السيول بفعل الواشمة وهي تعيد الوشم مرة بعد مرة ،على شكل حلقات ودوائر (كففا) ـ والدائرة تبدأ من نقطة ثم تعود اليها من جديد ،لتبدأ منها مرة أخرى ،وهكذا ـ وتشبيه فعل

السيول بفعل الواشمة المجددة يخلق حركة تتناسب حقيقة مع تصور الجاهلي للكون المحيط به ،ودور الأمطار في تجديد الحياة وبعثها ،فالامطار تسقط ،فتخضر الأرض وتعشب بعد نمو النباتات فيها ،ثم تغيب فيعود الجفاف والموات من جديد ،ليبدأ الانتظار والترقب لدورة أمطار جديدة تعيد الحياة الى الطبيعة .

في نهاية المشهد يبدو حديث لبيد كله متخيلا ،صادرا عن اللاوعي الفردي ،لأنه في نهاية الحديث يعود الى الموات في الديار فقد حاول بعث الحياة فيها ،وحاول استنطاقها ،ولكن النهاية كانت مؤلمة كان حلما خائبا لأن آثار الديار ماتزال سكونا مطبقا ومواتا خالدا ،فلا نفع من المحاولة ،ولا جدوى ،لأن الديار لم تنطق ولم تجب عن السؤال الحائر الأبله الذي وجهه الشاعر الحالم ... انها خراب وموات بفعل الرحيل والهجر .....

وفي البيت الأخير عودة بذاكرة الشاعر الى الماضي البعيد ،وهو اليوم الذي ارتحل فيه القوم من الديار . لقد كان لبيد في النص يعبّر عن نمطية الحياة في جزيرة العرب وما يرافقها من ظعن واقامة ،وجفاف، وخصب . وقد ظهر في النص دور المطر الأساسي في الحياة المتمثلة بالنبات والحيوان الأليف والانسان . ولكن المطر كان في هذه اللوحة حلما وخيالا .

وبعد أن تناولنا نص لبيد السابق وتبينا فيه دلالة المطر الرمزية ،نتناول بالتحليل نصا آخر ،خرج عن دلالاته الحسية المباشرة الى دلالات نفسية تكشف عالم الشاعر الداخلي وما يختلج فيه من مشاعر وأحاسيس، والنص اقتطعناه من قصيدة أوس بن حجر الحائية ،وقد أورده بعد أحد عشر بيتا منها ،بيّن فيها حبه للميس ،ولومها على فساد وصلها ،وحبّها ،ثم عرض لجمالها خاصا بالاهتمام عوارضها المصقولة وفمها العذب ،ثم ذكر أيام الشباب الخوالي،وقت كان يلهو بالنساء ،ويشرب الخمر ،ثم يذكر بعد ذلك امرأة – ربما كانت أمه – تلومه على انفاق المال في سبيل الخمر،مبينا من خلال نظرته الى الحياة التي يخيم عليها طابع الحزن والتشاؤم ،فهي منتهية ،لامحالة في قبر بمحنية ،وبكفن أبيض يشبه لون ظهر ثور وحشي . ثم يستيقظ بعد ذلك حسّ الحياة في داخله فيرفض أقاويل العجوزين –أمه وأبيه – مشيرا الى الشباب من جديد، لينتقل بعد ذلك الى لوحة المطر بقوله (٤٨)

١– اني أرقت ولم تأرق معي صاحي
لمستكف بعيد النوم لـوّاح
٢– قد نمت عني وبات البرق يسهرني
كما استضاء يهودي بمصباح
٣– يامن لبرق أبيت الليل أرقبه
في عارض كمضيء الصبح لمّاح
٤– دان مسفّ فويق الأرض هيدبه
يكاد يدفعه من قام بالراح
٥– كأن ريقه لما علا شطبا
أقراب أبلق ينفي الخيل رمّاح
٦– هبت جنوب بأعلاه ومال به
أعجاز مزن يسحّ الماء دلاّح
٧– فالتجّ أعلاه ثم ارتجّ أسفله
وضاق ذرعا بحمل الماء منصاح
٨– كأنما بين أعلاه وأسفله
ريط منشرة أو ضوء مصباح

٤٨– ديوانه : ١٥ – ١٨ . وفي نسبة أبيات من هذه القصيدة خلاف ،بعضهم يعزوها الى أوس ،وبعضهم الآخر يعزوها الى عبيد بن الأبرص . وقد ورد ت الابيات : ٣ ، ٤ ، ٥، ١٠ ، ٧ ، ٨، ١١، ١٢، ١٣، ٦متتابعة في ديوان عبيد بن الأبرص مع خلاف في بعض المفردات . انظر ديوانه : ٧٥ – ٧٧ .

٩- ينزع جلد الحصى أجش مبترك
كأنه فاحص أو لاعب داحي
١٠- فمن بنجوته كمن بمحفله
والمستكن كمن يمشي بقرواح
١١- كأن فيه عشارا جلّة شرفا
شعثا لهاصيم قد همّت بارشاح
١٢- هدلا مشافرها بحا حاجرها
تزجي مرابيعها في صحصح ضاحي
١٣- فأصبح الرّوض والغيعان ممرعة
من بين مرتفق فيها ومنطاح
١٤- وقد أراني أمام الحيّ تحملني
جلذية وصلت دأيا بألواح(٤٩)
١٥- عيرانة كأتان الضحل صلّبها
جرم السواديّ رضوه بمرضاح
١٦- سقى ديار بني عوف وساكنها
ودار علقمة الخير بن صبّاح

تظهر في النص عناصر لوحة المطر في صورة البرق والريح والرعد ، ثم الأمطار الغزيرة ، وغيرها من العناصر الثانوية كصورة الفرس الأبلق الذي يرمح فيبدو بياض خاصرتيه ، وصورة الثياب البيضاء المنشرة وضوء المصباح ، والحصى الذي ينزع المطر جلده ، والحيوان الذي يغلب وجه التراب بقوائمه ، والداحي الذي يلعب بالمدحاة فيسوق أمامه كل مايعترضه على وجه الأرض من تراب ، وصورة النياق المسنة الحوامل لعشرة أشهر، النوق التي قويت فصلائها وقاربت الفطام ، النوق التي تراعي صغارها حديثات النتاج في أرض مستوية ، وصورة الأرض التي غمرتها مياه المطر . وقد أسهمت هذه العناصر الثانوية في اغناء لوحة المطر وعناصرها الرئيسة ، بالظلال والألوان ، والأصوات والحركات .

أما صورة البرق فأول شيء يلفت النظر فيها ، هو بروز اللون الأبيض على مساحة سوداء غير محدودة ، يمثلها سواد الليل وقد التقى لمع البرق ، ضوء المصباح،وشروق الصباح ،ولون الثياب البيضاء ،ولون خاصرتي الحصان الأبلق البيضاوين ؛ وكلها تبرز صورة الليل الحالك الذي ينبعث فيه من بين حجب الظلام التماع البرق وومضاته . هذه الصورة التي حرص الشاعر على وضعنا في جوّها العام الحسّي والنفسي ، استعان على اظهارها بجملة من الأساليب التي يعدّ التكرار اللفظي والمعنوي أهمّها ، فهو يلح على بعض الألفاظ في عباراته ، ويردد بعض المعاني فيها ، وذلك من مثل قوله :(اني أرقت ولم تارق معي صاحي) - والأرق لايكون الا في الليل - ومن مثل (بعد النوم) و (قد نمت عني ، وبات الليل يسهرني) و (أبيت الليل أرقبه). فكلها تعمق اللون الأسود الذي كان يشكل في هذه اللوحة حجبا خلفية برز في وسطها اللون الأبيض ، والمتكرر في مواضع كثيرة .

ان تكرار اللون الأبيض ، قد يبدو عارضا للوهلة الأولى ، ولكننا اذا عدنا الى المقطع الذي سبق مقطع وصف البرق والسحاب الماطر (الأبيات : ١- ١١ من القصيدة كاملة) استطعنا أن نمتد بمساحة هذا البياض الى أبعاد أخرى ، فنجد بياض الأسنان ، وقد أحاطت بها سمرة اللثاث والشفاه ، والسمرة لون باهت من ألوان السواد ، ونجد أيضا ضحكة لميس التي تكشف عن بياض أسنانها ، فهي (عروب غير مكلاح) وفي الكلوح عبوس يتناسب مع السواد الخفيف أيضا ، حتى صورة الكفن الأبيض جاءت مركزة البياض في اطار اللون الأسود أو الأحمر للثور الوحشي .

٤٩- يبدو أن هذا البيت والذي يليه ليس هنا موضعهما ،وحقهما أن يكونا بعد البيت (١٦) وبذلك يكون المعنى مطردا .

مما تقدم نستطيع أن نخلص الى أن استخدام الشاعر لهذين اللونين الحسيين، قد جاء محملا بدلالات نفسية ، عبر عنها بحرصه الشديد على أن يعيش الحياة بمظاهرها المختلفة ، لاسيما المبهجة المفرحة منها ، يبعد كل مايحزنه ، أو يشعره بالشيب أو العجز أو النهاية الحتمية المؤلمة للانسان .

وقد تابع أوس في كلامه على البرق تغليب وجه الحياة والشباب أيضا ، فظهر اللون الأبيض حاملا دلالات اشراقية ارتبطت بالشباب والقوة . فغمر لوحة الظلام بالالوان البيضاء والضياء ... وقد استمد صوره البصرية التي عمقت معاني البياض من البيئة التي عاش فيها ، فوجدنا صورة اليهودي الذي يسهر على ضوء مصباحه ، وهي صورة كانت معروفة في بلاد العرب قبل الاسلام ، حيث عرفت اليهودية والمسيحية في بعض المناطق . ووجدنا صورة الصبح المنبلج وهو يبدو في الواقع أكثر بياضا اذا أعقب سواد الليل ، ولعلّ صفاء البادية العربية ، يجعل صورة الصبح أكثر وضوحا واشراقا .

وبعد صورة البرق التي وجدنا أن الشاعر اعتمد في رسم معالمها وابرازها على حاسة البصر ، نجد صورة الرعد ، وسقوط المطر ، وقد اعتمد في اظهارها وتقوية أصواتها على كلمات موحية ، وصور تستثير حاسة السمع ، وتظهر فيها الأصوات الصاخبة التي تناسب اندفاع الشباب والرغبة في الحياة . فقد استعان بأفعال موحية تحمل في معانيها وأصواتها أصوات الرعد وما يرافقه من وقع الأمطار من مثل التمجّ(٥٠) ، وارتمجّ . فمن دلالات الفعل التمج أنه يدل على التمادي في الأمر ورفض الانصراف عنه ، كما يرتبط بلجّة البحر ، وهي البحر الذي لايدرك قعره ،ويحمل أيضا دلالات قوة الأصوات واختلاطها. أما الفعل ارتج فيصور قوة الرعد وغزارة المطر أيضا ، فيقول : ارتج البحر اذا كثر ماؤه وعمّ كل شيء (٥١) . وقد عبرت الجيم المشددة في الفعلين عن دلالات صوتية تقوي دلالتهما السابقة . كما استخدم كلمة (أجش) في التعبير عن قوة أصوات الرعد ، فالآجش هو الصوت الغليظ (٥٢).

واستعان أيضا بصورة حسية تعتمد على التشبيه ، وتعدّ من المشاهد المألوفة في بادية العرب ، وهي صورة النياق وصغارها . وقد وفرّ لصورته تلك العناصر الموحية بكثرة الاصوات والصخب . ففي هذا القطيع من النياق الذي وجده في شكل الغيوم نياق مسنة حوامل آتى عليها عشرة أشهر من الحمل ، فهي لذلك دائمة الحنين ، بعد أن أحست أن صغارها ستنزع منها . وفيه نياق أخرى تراعي صغارها حديثات النتاج في أرض مستوية ظاهرة ، فهي لذلك أصبحت بحاء الحناجر لما أصدرته من أصوات الحنين على صغارها .

لقد قدمت هذه الصورة للنياق المختلفة الاعمار والأشكال والأصوات ، عاملا صوتيا أغنى المشهد بالصخب وأصوات الرعد ، وهذا مايعزز الايحاء بغزارة المطر وقوته بما يتلاءم ونفس الشاعر وروحه المفعمة بالنشاط والحيوية .

أما صورة السحب ، فقد كشفت عن الهموم والاحزان التي كان الشاعر يعيشها في قرارة نفسه في بداية الأمر ، والتي حاول أن يبعدها برغبته في الحياة والتمسك بمباهجها المفرحة ، ومما يرجح ذلك أن

---

٥٠ ـ انظر معاني الفعل (التمجّ) في لسان العرب : (لجج)/٣٩٩٨ ـ٣٩٩٩

٥١ ـ لسان العرب (رتج) / ١٥٧٦

٥٢ ـ لسان العرب (جش) / ٦٢٨

الشاعر انتقل من ذكر الغيوم المتراكمة ورعدها الى ذكر سقوط الأمطار الغزيرة التي غمرت القيعان والأودية وتركت الفرح في داخله ،وأهاجت فيه بواعث الشباب فرحل على ناقته .

أما الريح في هذه اللوحة فقدكان دورها مساعدا في عملية استنزال الأمطار ،فقد هبت الجنوب ـ وهي التي عرفت عند الجاهليين بارتباطها بالمطر ـ بأعلى هذه الغيوم ،ثم مالت به سحابة بيضاء يسح الماء منها ،وبعد أن التج أعلاه ،وارتج أسفله ،وضاق ذرعا بحمل مائه ،لايكون قادرا على الاستمرار في حمله فيتشقق بالماء ويهطل بغزارة .

أما في وصف سقوط المطر ،فقد استعان الشاعر بصور حسية أخرى،تعتمد على التشبيه ،وتجسد ما أراده الشاعر لمطره من غزارة وقوة ،منها صورة القطاة التي تفحص التراب بقوائمها ، وصورة الداحي الذي يلعب بالمدحاة ،فيجرف التراب من أمامه . واستعان بصورة حسية أخرى لتصوير قوة وقع الأمطار على الأرض فجعل للحصى جلدا ينزعه المطر بسقوطه .

لقد كانت معاني الغزارة والقوة تتلاءم والوضع النفسي للشاعر ورغباته في أن يعيش الحياة المبهجة السعيدة ،وقد ظهر ذلك واضحا في نهاية المشهد عندما صور ماخلفه المطر من خصوبة ،ونماء وحياة فقد غمر الرياض وقيعانها ،وتفرعت منه مياه غزيرة متدفقة .

لقد استطاع أوس بهذه الصور الحسية أن ينقل لوحة غنية بالايحاءات والظلال النفسية جسدت الفكرة العامة للقصيدة في رفض الموت والتمسك بمباهج الحياة وملذاتها ، انطلاقا من فلسفة تؤمن بحتمية الموت،ولكنها لاتمتلك سلاحا في مواجهته سوى التعلق بالحياة .

يتبين لنا من هذه الدراسة الموجزة أن المطر كان ظاهرة على درجة كبيرة من الأهمية في حياة العرب الجاهليين.فقد تعلقت به حياتهم ،من استقرار ورحيل وحزن وفرح .

وقد اهتم العربي بهذه الظاهرة ،وحاول بوسائله السحرية البدائية التحكم بها. فعرف طقوس السحر البدائية ،لاستمطار السماء واستنزال الامطار . ثم تطور وعيه فربط هذه الظاهرة بالآلهة ،ونسب الى بعضها أمر استنزال الأمطار وارسال البروق والرعود وحاك حولها الأساطير ،محاولا تفسير مظاهر الطبيعة من برق ورعد ومطر بمنطقه البدائي . ولأهمية المطر الكبرى فقد أصبح ـ في الشعر الجاهلي ـ رمزا للبعث والتجدد والحياة ،يقابل عوامل الموت واليبوس في الطبيعة ،وأصبح مظهرا حياتيا وفنيا عبر من خلاله الشعراء عن عالمهم الداخلي، وعما يعتريهم من تلف وحزن وتشاؤم أو فرح وسعادة وتمسك بمباهج الحياة .

المراجع

القرآن الكريم

١ ـ الأزمنة والأمكنة .لأبي علي المرزوقي. مطبوعات الخليج ١٩٦٨ .

٢ ـ الأساطير . لأحمد كمال زكي . دار العودة بيروت ١٩٧٩ .

٣ ـ الأساطير والخرافات عند العرب .للدكتور محمد عبد المعيد خان . دار الحداثة بيروت ١٩٨٠ .

٤ ـ أشعار العامريين الجاهليين . جمع وتوثيق الدكتور عبد الكريم يعقوب. دار الحوار ـ اللاذقية ـ ١٩٨٢ .

٥ ـ بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب : لمحمود شكري الآلوسي . شرح وتصحيح محمد بهجت الأثري . منشورات المطبعة الرحمانية بمصر ج ١ ج ٢ عام ١٣٤٢هـ ١٩٢٤ م.

٦ ـ تاريخ العرب القديم والعصر الجاهلي. للدكتور نبيه عاقل ـ مطبوعات دمشق المطبعة الجديدة ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ .

٧ ـ تاريخ العرب المطول . لفيليب حتي ترجمة د . أدور جرجي ،ود. جبرائيل جبور . مطبوعات دار الكشاف ١٩٥٢.

٨ ـ تفسير الخازن . لعلاء الدين البغدادي. مطبوعات المكتبة التجارية الكبرى بمصر ،بلا تاريخ .

٩ ـ تفسير الطبري أو " جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لمحمد بن جرير الطبري .تحقيق وتعليق محمود محمد شاكر . مطبوعات دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م

١٠ـ الحيوان . لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ـ منشورات دار الكاتب العربي. بيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .

١١ـ ديوان الأعشى الكبير (ميمون بن قيس) شرح وتعليق د.محمد محمدحسين. المكتب الشرقي للنشر والتوزيع بيروت.

١٣ـ ديوان أمية بن أبي الصلت.تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي . المطبعة التعاونية بدمشق ١٩٧٧ م .

١٤ ـ ديوان أوس بن حجر . تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ،دار صادر ،بيروت ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م .

١٥ـ ديوان بشر بن أبي حازم الأسدي. تحقيق د . عزة حسن . منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م.

١٦ـ ديوان عبيد بن الأبرص . تحقيق تشارلز ليّال . طبع بريل ليدن ١٩١٣.

١٧ـ ديوان عديّ بن زيد العبادي . تحقيق محمد جبار المعيبد . وزارة الثقافة بغداد .

١٨ـ ديوان النابغة الذبياني . تحقيق د. شكري فيصل . دار الفكر ـ دمشق ١٩٦٨ .

١٩ـ ديوان الهذليين . الدار القومية للطباعة والنشر ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م. طبعة دار الكتب المصرية .

٢٠ـ شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري. تحقيق د. احسان عباس . سلسلة التراث العربي . الكويت ،وزارة الارشاد والأنباء ١٩٦٢ .

٢١ـ شرح القصائد العشر: للخطيب التبريزي. تحقيق د. فخر الدين قباوة. نشر وتوزيع المكتبة العربية بحلب ١٣٨٣ هـ ١٩٦٩ م .

٢٢ـ شعر عمرو بن معدي كرب . جمع مطاع الطرابيشي . مجمع اللغة العربية بدمشق ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥م.

٢٣ـ صفة جزيرة العرب . للحسن بن أحمد الهمداني . تحقيق محمد بن بليهد النجدي . مطبعة دار السعادة بمصر ١٩٥٣ .

٢٤ـ الغصن الذهبي : جيمس فريزر . ترجمة مجموعة من الدكاترة باشراف د. أحمد أبو زيد . الهيئة المصرية للتأليف والنشر ١٩٧١ .

٢٥ـ الفائق في غريب الحديث . للزمخشري ضبط وتصحيح محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي . دار احياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي ،القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م .

٢٦ـ الفولكلور والأساطير عند العرب : لمحمود سليم الحوت . دار الكتب بيروت ١٩٥٥ .

٢٧- قصائد جاهلية نادرة ،د. يحيى الجبوري. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
٢٨- كتاب الأصنام . لأبي المنذر هشام بن السائب الكلبي . تحقيق : أحمد زكي. المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩١٤م.
٢٩- لسان العرب، لابن منظور ،دار المعارف- مصر .
٣٠ - المسالك والممالك ،لأبي اسحق الاصطخري تحقيق د. محمد جابر عبد العال وزارة الثقافة القاهرة ١٣٨٣هـ١٩٦١م.
٣١- معجم البلدان،لياقوت الحموي ،دار صادر ودار بيروت بيروت ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
٣٢- معجم ما استعجم لأبي عبيد بن عبد العزيز البكري ،تحقيق . مصطفى السقا. القاهرة- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . ١٣٦٤هـ ،١٩٤٥م
٣٣- المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام. للدكتور جواد علي . دار العلم للملايين بيروت ومكتبة النهضة بغداد ١٩٨٦.
٣٤- نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ،وزارة الثقافة والارشاد القومي - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة .